



أضرار
جانبية
للعقود
أنا

Jannat Ibrahim
(جننوا)

أضرار جانبية لكوني أنا

Jannat Ibrahim

جَنَافَا

◆ الإهداء ◆

لا أهدي هذا الكتاب لأحد.
لا لأنني بلا امتنان،
بل لأن أحداً لم يكن هنا حقاً.

لا تفرح، إن وجدت نفسك بين السطور،
قد لا تكون أنت...
وقد لا أكون أنا.

هذا الكتاب ليس عربون محبة،
ولا وردة في جنازة الشعور.
هو حطام،
أكتبه لأنني سئمت جمعه.

◆ المقدمة ◆

لا تفتح هذا الكتاب.

نعم، لا تفتحه.

لست مستعداً لما فيه، ولا هو مكتوبٌ لأجلك أصلاً.

هذا ليس ديواناً يواسيك،

ولا خواطر تُزيّن بها حزنك النرجسي.

هذا مرآة... مشروخة،

وإن اقتربت، ستنزف.

هذا كتابٌ كُتب تحت الطاولة،

في الليالي التي لم تُنقذني فيها،

حين كنتُ أستغيث بك بداخلي، وأنت كنتَ نائماً في حياة لا تُشبهك.

فإن كنتَ هنا لتبحث عن ترفٍ نفسي، أو لتتظاهر بالوعي،

فأنصحك: اترك الكتاب، وعد إلى قوقعتك الناعمة.

هنا، لا نُزيّف الألم،

ولا نُجامل مشاعرك الهشة.

هذا الكتاب خُلق ليصدم، لا ليُعجب.

ليفضح، لا ليُعلّق على الرف.

وإن بقيت تقرأ... فأنت من الآن، مسؤول عن كل ما سيُكسر فيك.

هذا ليس كتابي. بل كتابك الذي لم تجرؤ على كتابته.

لكنني كتبتُه عنك... قبلك.

الفصل الأول

قضية رقم 1: من قتل الثقة؟

"أنا لم أمت، أنا فقط سقطت من قلوبهم."

– الثقة، قبل رحيلها

■ شهادة وفاة

(نموذج خاص بالمشاعر البشرية – إصدار داخلي)

الاسم الكامل: الثقة

النوع: شعور بشري نادر / فصيلة عاطفية عالية الحساسية

الرتبة: من ركائز البناء النفسي والعلاقات الإنسانية

تاريخ الميلاد:

غير محدد بدقة – تُولد عادة في سنوات الطفولة المبكرة،
حين يُوعَد الطفل وعدًا صغيرًا... ويُوفى به.

تاريخ الوفاة:

لا تاريخ رسمي مُثبت،

لكن المؤشرات النفسية تُرجّح أنها لفظت أنفاسها الأخيرة
في مساء يومٍ خذلانٍ قاسٍ، لم تتعاف منه.

مكان الوفاة:

الجهة اليسرى من الصدر – المنطقة الخلفية لأضلاع القلب،
قرب شريان "النية الصافية".

سبب الوفاة:

- نزيف داخلي حاد نتيجة طعنة غادرة بالكذب
- تبعثها ضربة مزدوجة بالخيانة والخذلان
- غياب العناية العاطفية في اللحظات الحرجة
- تجاهل تام لأعراض التدهور المزمن

الجهة المبلّغة:

قسم الضمير – شعبة العواطف العليا

غرفة الطوارئ – مستشفى المشاعر – الساعة 11:47 مساءً

في زاوية باردة من جناحٍ لا يُفتح إلا حين تتفسّخ القلوب،
ثُركت "الثقة" ممدّدة على سرير أبيض، دون حراك.
وجهها كان شاحباً كأنّ الحياة انسحبت منه على استحياء،
وشفاها مضمومة كأنّها ترفض الحديث، بعد أن كُسر فيها آخر عهدٍ بالكلام.
عينها مفتوحتان، لا تبكيان، لا تتكلمان،
بل ترمقان سقف الغرفة بنظرةٍ زجاجيةٍ، كأنّهما تسألان السماء:
"لِمَ تركوني وحدي؟"

جهاز النبض يعاني مثلها، يصدر صوتاً متقطعاً أشبه بالتهيدة الأخيرة لمن حاول
البقاء.
أنفاسها هشة، كأنّها تخرج من تحت الأنقاض.

دخل الطبيب النفسي المناوب، لا يحمل أدوات إسعاف،
بل ملفاً ثقیلاً مكتوبٌ على غلافه: "حالات فقدان غير قابلة للإنعاش".
وقف بجوارها، وضع السماعة على صدرها، أنصت...
فلم يسمع سوى الصمت.
صمتٌ كثيف، ممتدّ، عميق، يشبه الفراغ الذي يخلفه الندم بعد فوات الأوان.
رفع رأسه ببطء. التفت إلى الممرضة الواقفة بجواره، وقال بصوتٍ منخفض:

— للأسف... لقد ماتت.

— متى؟

— لست متأكداً...

لكن يبدو أنها كانت تحتضر منذ زمنٍ بعيد،
وكلما كانت تنزف، وضعوا فوق جراحها وعودًا مؤقتة، وابتعدوا.

صمت لحظةً، ثم أضاف:

— كانت قوية... لكن الطعنات جاءت من الداخل.

من أقرب المقربين.

كل مرة سامحت، كانت تنكسر أكثر.

نظرت إليه الممرضة بعينين دامعتين:

— وهل لها من أهل؟ من يبكيها؟

— كان لها قريبٌ يدعى "الأمل"...

لكنه تغيب منذ مدة، ولا أحد يجيب هاتفه.

فتح الطبيب ملفّ الوفاة، تنهد، وأعلن رسميًا:

"نُعلن في هذا اليوم، وفاة (الثقة) بعد صراعٍ مريرٍ مع الكذب،

وتدهورٍ حادٍ سببه الخيانة المتكررة،

ونزيفٍ داخلي لم تُسعفهِ العهود الفارغة.

لم تُوفّر لها عناية حقيقية،

ولم تكن تحت المراقبة القلبية المطلوبة."

ثم كتب في الهامش بخطٍ مائل:

"وُجِدت في غرفةٍ بلا زائر،

في جناحٍ بلا شاهد،

في مستشفى بلا رحمة."

غطى وجهها بملاءةٍ بيضاء، وخرج من الغرفة دون أن ينظر خلفه.

نُقلت الجثة إلى المشرحة النفسية، حيث توضع الحالات التي تُنسى بهدوء،

دون دموع، دون ورد، دون جنازة.

المشرحة النفسية – بعد منتصف الليل

في تلك الغرفة الباردة، حيث تُحتجز الأجساد التي فارقتها المشاعر،
وحيث لا يُسمع سوى طنين الأجهزة وجنازات الصمت،
وُضعت "الثقة" داخل درج معدني رقمه: سبعة.

رقم غريب، لا يُشبه شيئاً...
إلا عدد الطعنات التي وُثقت في جسدها الرمزي.

كانت الطعنة الأولى في طفولتها،
حين وعدّها أحدهم أن يعود... ولم يعد.

والثانية في صباها،
حين قيل لها: "أنا معك دائماً"، ثم تُركت فجأة دون وداع.

الثالثة... في الحب.
حين فتحت قلبها كنافذة شتوية، فاقتحمها الريح وتركها موحشة تُصفق وحدها.

الرابعة... في الصداقة.
حين أعطت ظهرها بثقة، فزُرع فيه خنجر الكلام المسموم.

الخامسة... في العائلة.
حين خذلها من ظنّت أنهم الأمان، فصاروا أول الساقطين.

السادسة... في نفسها.

حين بدأت تشكّ بجدارتها، وتلوم روحها على سذاجتها،
فطغنت نفسها بصمت، واختبأت تحت لحاف الندم.

أما السابعة...

فلم تُعرف حتى الآن.

لم يُعثر على القاتل،

ولم يعترف أحد.

المشرّح، وهو رجل اعتاد أن يرى وجوه الموتى دون أن يهتز،
وقف أمامها طويلاً.

حدّق في ملامحها المنطفئة، ثم كتب بصوتٍ قلمٍ مُتردد:

"ملامح انكسار واضحة على الوجه.

العينان... مطفأتان، لكن ممتلئتان بالخذلان.

آثار الخيانة غائرة، ومتكرّرة.

لا وجود لأي علامة على محاولات إسعاف جدّية.

يبدو أنها كانت وحدها حتى في النزيف الأخير."

أغلق التقرير، ووضعها بجانب الجثة.

ثم أعاد الدرج إلى مكانه، ليتوارى الجسد خلف صرير معدني بارد،

كأنه يُغلق قوساً من الألم، لا أحد قرأه كاملاً.

وفي الخارج...

لم يكن أحد ينتظر.

لا أحد.

سوى الريح،

وهي تهمس عند باب المشرحة:

"أنا أيضاً... كنت أثق بهم."

إعلان عام في المدينة الداخلية (العقل)

في تمام الساعة الثالثة صباحًا،
اهتزّت جدران المدينة الداخلية، ودقّ جرس الطوارئ في ممرّات "العقل
البشري".

سُمعت صفارات الصدمة، وتوقّفت حركة الأفكار لحظات،
ثم ظهر في نشرات الأخبار الداخلية، على شاشة الإدراك، البيان الآتي:

➤ ٥ عاجل - تنبيه نفسي عام:

تم العثور على "الثقة" جثة هامدة.
مكان الوفاة: المنطقة العاطفية السفلى، قرب نقطة الارتباط.
التحقيقات لا تزال جارية، والجريمة قيد التوسيع الرمزي.
يُطلب من كل من كانت له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالفقيدة
التوجّه فورًا إلى "قاعة المحاكمة النفسية - الطابق اللاواعي".
القضية رقم (١): من قتل الثقة؟
أولى الجلسات تبدأ مع شروق الندم.
الحضور إلزامي. الغياب يُعدّ إنكارًا.

مع تحيات: جهاز الرقابة الشعورية - قسم الضمير.

ثم انطفأت الشاشة...

وعمّ صمتٌ غريب في أروقة النفس،
كأنّ شيئًا عظيمًا قد بدأ للتو،
ولا أحد سينجو دون أن يُستدعى.

🏛️ قاعة المحاكمة النفسية – صباحًا

في قاعةٍ عظيمة، ترتفع جدرانها كجدران الذاكرة،
تتكئ على صورٍ باهتة ولقطاتٍ وديعة:
ضحكة صادقة، عناقٍ قديم، وعدٌ لم يُكسر...
هنا، حيث تتجمع المشاعر كشهودٍ وشبهات،
جلس القاضي "الضمير" على منصةٍ مرتفعة،
أمامه ملفاتٌ صفراء من أوراق الذكري،
تفوح منها رائحة الزمن المُهمَل.

في منتصف القاعة، جلست "الخيانة" على مقعد الاتهام،
مُتقنعةً بهدوءٍ مصطنع،
وإلى يسارها كان "الكذب"، أنيق الهيئة،
بوجهٍ جامدٍ لا يعترف بشيء،
وعينين تتجولان ببرودٍ فوق ضحايا لا يتذكّر أسماءهم.

وفي زاوية الشهود، جلس "الأمل" منكسر الظهر، باهت النظرات،
كأنّ نوره القديم قد انطفأ في ليلٍ لا شمس بعده.
وبجانبه، كانت "البراءة" تبكي في صمت،
دموعها تنساب كأنها تحاول أن تُطفئ نارًا لا تراها.

دخل "الألم" — المدّعي العام —

يحمل بين يديه ملفًا ثقیلاً، كأنما يحمل فيه تاريخ الإنسانية كله.
رفع الملف أمام القاضي، ثم قال بصوتٍ كالسيف:

"يا سيّدي القاضي، يا سادة الشعور...
لم نأتِ اليوم لنندب الحظ، بل لنواجه الجريمة الكبرى:
الثقة... لم تمت ميتةً طبيعية.
لقد قُتلت، طعنةً إثر طعنة،
حتى ذبلت، وانطفأت، وفقدت إيمانها بالناس."

فتح الملف، وأخرج منه صفحاتٍ كأنها ملطّخة بدم قديم:

"وُلدت الثقة حين قيل لطفلٍ خائف: (أنا لن أتركك)...
وماتت حين تُرك وحده في الزاوية.
كبرت حين صدّقت فتاةً عاشقًا،
وماتت حين قرأت رسائله لغيرها.
تنفّست بين الأصدقاء حين تشاركوا الأسرار،
وماتت حين خان أحدهم الآخر عند أول امتحان.
الثقة لم تكن شعورًا فقط... بل وطنًا.
وها هو الوطن، محترق، يتصاعد منه دخان الخذلان."

ثم ضرب الألم بيده على المنصّة، وصرخ:

"السؤال هو: من أشعل النار؟!!"

القاضي (الضمير):

"هل هناك شهود؟"

الألم:

"نعم، سيدي. أولهم: الأمل."

نُودي على "الأمل"، فنهض مترنحًا،

كأنّ الحنين أثقل كاهله.

وقف في المنتصف، ثم أوما برأسه:

"أقسم... وإن كنت لا أطيق قسمًا بعد الآن."

صمت قليلًا، ثم قال بصوتٍ واهن:

"كنت معها، منذ اللحظة الأولى..."

أراها تنمو حين كان الناس صادقين،

وتذبل حين صار الكذب عادة.

في البداية، كانت تسامح،

تُداوي جراحها بنفسها.

لكنها لم تعد تجد في قلبها مساحة للغفران.

رأيتها تبكي...

بعد كل وعدٍ لم يُوفَ،

كل يدٍ سحبت يدها في منتصف الطريق،

كل عينٍ كذبت وهي تبسم.

وفي آخر أيامها، همست لي:
(أنا تعبت... صاروا يطلبونني ولا يصونونني)...
ثم سكنت. ولم أعد أسمع صوتها منذ ذلك اليوم."

اختنق صوته. انحنى. ثم أشار القاضي له بالنزول.

القاضي:
"هل من شهود آخرين؟"

الأم:
"نعم، سيدي... الشاهدة القادمة: الطفلة التي في الداخل."

دخلت طفلة صغيرة.
عينها واسعتان، لكن الحزن فيهما أكبر من عمرها.
تقدّمت بخطى خجولة، ووقفت أمام القاضي.

الضمير:
"تكلمي"

الطفلة:
"أنا... كنتُ أول من أحبّها. أول من آمن بها.
كانت تقول لي: صدّقي الناس، لا يخون من تحب.
لكن كلما كبرت... رأيت غير ذلك."

كلما صدّقت... كُذبت.
وكلما اقتربت... طُغت.

الثقة كانت أُمي... كانت أختي...
كانت تحضنني وتبتسم.
ثم صارت تتعب... تنكمش... تختفي.

في آخر مرة صرختُ لأجلها،
لم يجبني أحد.

نظرت إلى القاضي وسألت همسًا مكسورًا:
"هل يمكن أن تعود؟... فقط، قولوا لي إنها لم تمت تمامًا."

سكت الجميع.
حتى "الخيانة" خفضت بصرها لأول مرة.

الضمير:
"الكلمة الآن لدفاع المتهمين."

وقف "التبرير"، محامي الدفاع.
رجلٌ هزيل، يرتجف صوته، اعتاد تبرير ما لا يُبرّر.
قال:

"سيدي القاضي..."

الحياة ليست عادلة، والناس ليسوا ملائكة.

موكلاتي — الكذب والخيانة — لم يولدا أشرارًا،

بل كانت ولادتهما نتيجة:

الكذب؟ وُلد من الخوف.

الخيانة؟ من الجوع العاطفي، من الوحدة، من الألم.

الثقة؟ نعم، قُتلت.

لكنها كانت ساذجة. تُمنح دون تدقيق.

تُعطى لمن لا يستحق، وتعود لمن يطعن."

سرت مهمة في القاعة.

القاضي (الضمير):

"سؤال أخير للمتهمين..."

هل لديكما ما تقولانه قبل النطق بالحكم؟"

الكذب:

"أنا لم أقتلها وحدي.

كل من قال (أنا بخير) وهو ينهار،

كل من وعد ولم يف،

كل من قال (أحبك) وهو لا يعي المعنى...

هم شركائي في الجريمة."

الخيانة:

"أنا لم أبدأ الحرب.

هي التي دخلت بلا درع، بلا حذر.

أنا فقط... أخرجتها."

وقف القاضي. ساد الصمت.

قال بصوتٍ حازم، كَأَنَّهُ يصدر من داخل كل روح:

"بعد الاستماع إلى الشهادات،

ومراجعة الأدلة،

تقر المحكمة النفسية العليا أن:

"الثقة" لم تمت، بل قُتلت عمداً،

على يد "الخيانة" و"الكذب"،

وبمشاركة فاعلة من:

التهاون، النسيان، التبرير، الخذلان، والمجتمع.

ثم أضاف:

"وبما أن الموت قد وقع،

فلا سبيل لعودة الحياة

إلا بـ:

الصدق الكامل،

الالتزام الثابت،
والحبّ النقيّ."
وختم بجملةٍ سجّلت في أرشيف الذاكرة:

"هكذا ماتت الثقة...
ولكنها قد تعود،
حين يكون القلبُ محكمة،
ويكون الضميرُ قاضيًا لا يُشترى."

الفصل الثاني

العناية المُشددة للمشاعر

"هناك مشاعر تموتُ بصمت...
وأخرى تُزف إلى العناية المركزة دون أن يُسمع لها نحيب."

- من دفاتر الحكمة المفقودة

كان الوقت فجرًا حين دَوّت صافرة الطوارئ في جناحٍ خافت الإضاءة من المستشفى الداخلي للمشاعر البشرية.

الستائر متهذلة، والممرات باردة تنفث في الأرواح رائحة الكافور... والخذلان. في الطابق السفلي، تراكمت ملفات لمشاعر أُحضرت على عجل قبل ساعات إلى العناية المُشددة:

"الطمأنينة"، "الإيمان بالنفس"، "الأمل"، وأخيرًا... "الأمان".

في الغرفة رقم (٣٧)، كان الأطباء يتحركون كمن يحاول إنقاذ آخر ما تبقى من شرف الإنسانية.

أجهزة الإنعاش تهتز، أنابيب التنفس ترتجف، وأحدهم يصرخ:

— الضغط ينهار! أين جهاز الصدمات؟!

— أسرعوا، الأمان يحتضر!

في الزاوية، جلست ممرضة تدعى "الحكمة"، تمسك بيد الأمان المرتجفة كما تمسك الأم بأطراف رضيع يحتضر.

عينها تحدّقان فيه كأنهما تعرفان أنه لن يُعمّر طويلاً في هذا الجسد المتصدّع.

بجانبيها الطبيب المسؤول، اسمه "الوعي" — رجل تجاوزته السنون وتركته مرهق الملامح، كأنه رأى كل أشكال الانهيارات النفسية، وخبر كل موتٍ عاطفيٍّ محتمل.

كان يتابع النبض المتقطع على الشاشة ويتمتم بنبرة موجوعة:

— تأخروا كثيرًا... لو أحضروه قبل الانكسار، لكان يمكن إنقاذه.

ثم... توقف كل شيء.

النبض صفر.

الشاشة زرقاء بخطٍ مستقيم كالقبر.

الصمت أطبق على الغرفة كما يُطبق الظلام على عينٍ فقدت البصر.

خلع الطبيب قفازاته ببطء، ورفع رأسه وقال بصوتٍ لا رجعة فيه:

- سُجِّلَت الوفاة: الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة فجرًا.
- سبب الوفاة: صدمة شديدة بفقدان الثقة اختناق داخلي بكتّم المشاعر، تلاه نزيف سبّبته جرعة زائدة من الخوف المستمر .

شهادة وفاة رسمية

الاسم: الأمان

العمر: غير مُحدد

المهنة: شعور داخلي يمنح النفس راحة الإقامة في هذا العالم

تاريخ الوفاة: عند أول خذلان بعد وعد

السبب: اختناق داخلي بكتّم المشاعر، تلاه نزيف سبّبته جرعة زائدة من الخوف المستمر

المُبلّغ عن الوفاة: الطبيب "الوعي"

الجهة المسؤولة عن نقله: "الضمير" بعد انهيار جدار النفس

الطابق العلوي – غرفة الاجتماعات الطارئة

في الأعلى، حيث تُعقد جلسات الأزمات النفسية الحادة، اجتمع المجلس العاطفي الأعلى لمناقشة الحادثة.
على الطاولة جلست مشاعر متعددة:

السكينة: متلّعة ببطانية رمادية، عيناها زجاجيتان، جسدها يرتجف ولا تتكلم.
الغيرة: تهز ساقها بعصبية، تطرق الطاولة بأظافرها المطلية بالخوف والتسرع.
الغضب: واقف عند الباب، يُطقطق أصابعه كما لو أنه ينتظر انفجاراً.
الاعتزاز بالنفس: ترفض الجلوس، ترتدي ثوباً أسود حداداً، وتحقق في الجميع باحتقار.
الحب: منكسر، شعره أشعث، عيناها مطفأتان، ينظر في الفراغ وكأنه يرى ما لا يروى.

دخل الطبيب "الوعي" يتبعه كبير المراقبين "الضمير"، فافتتحت الجلسة بصوت جاف:

– أسجل أمامكم الحالة التاسعة هذا الشهر. لقد فقدنا شعوراً آخر. الأمان لم يتحمل أكثر. وكما تعلمون... لم يأت وحده. كان برفقة الثقة، لكنها... قتلت.

رفعت "الغيرة" صوتها بحدة:

– ربما كذبت! أو تواطأت مع الخارج. أنتم تعرفون أن المشاعر المتفائلة تعيش على الوهم!

تدخلت "السكينة"، بصوت أشبه ببكاء:

- لا... لا تتهموها. الثقة كانت تحتضر منذ زمن. كانت تنزف بهدوء، لكنها لم تجد من يسألها: هل أنت بخير؟

هنا فقط تكلم "الحب"، بصوت منهك، كأنما يُخرج من صدره قطعة قلب:

- لقد قُتلت أمامي... بيد من أحببت.

ساد صمت.

صمتٌ لا يشبه أي صمت.

صمت كأن الجميع سقط فجأة في قعر الحقيقة.

تقرير الطب النفسي الداخلي

بعد الجلسة، فُتح ملف التشريح النفسي.

تبيّن أن "الأمان" تعرّض لنزيف داخلي طويل لم يُكتشف في حينه.
دماؤه مشبعة بأثر القلق، والخوف المتراكم، والإحساس العميق بعدم الاستحقاق.
قلبه... كان كقلب طائر مُنهك... مثقوب بآلاف الوعود التي لم تُنجز.

كُتب في التقرير:

"لم يُقتل الأمان دفعة واحدة، بل كان يموت كل يوم بصمت... تآكل تحت وطأة
الشك، والإهمال العاطفي، وتراكم التجارب التي لم يُشفَ منها قط."

المشرحة

الهواء بارد.

الوقت بلا ملامح.

توضع جثة "الأمان" في كيس رمادي، يُعلّق على جبينه:

"دفن مؤجل... بانتظار استعادة الثقة."

يقف "الضمير" عند الباب، يُتمّم للممرضة:

- سنحتاج إلى تجهيز قاعة عزاء.
- ومن سيحضر؟
- لا أحد... لقد اعتاد البشر أن يعيشوا من دون أمان.

لكن...

صوت خفيف يقترب، خطوات خجولة لممرضة صغيرة اسمها "النية"، تدخل
حاملة ملفاً أخضر.

عيناها تلمعان بشيء يشبه الرجاء.

قالت: وجدت شيئاً... قد لا يكون الأمان قد مات كلياً.

ارتفعت رؤوس الجميع، وارتجف صوت "الوعي" وهو يسألها:

- ماذا تعنين؟

- هناك نبض... خافت... عميق جداً، لكنه لم ينطفئ... ربما مازال هناك أمان.

تبادلت العيون النظرات.
"السكينة" شهقت بصوت مكتوم.
"الحب" دمعت عيناه.
حتى "الغضب" هدأ.

قال "الضمير" بحزم:

- أعيدوه إلى غرفة الطوارئ...
ربما... فقط ربما...
يمكننا إنعاش الأمان.

الفصل الثالث

في عيادة الوعي – جلسة لترويض الداخل
«الوقت لا يشفي... بل الفهم هو الذي يفعل.»
-مجهول

في الزاوية القصوى من صالة لا تُشبه المستشفيات ولا تَمَتّ للعيادات بصلّة، انتصبت ساعةً رمليةً ضخمة. حباتها تتساقط برتابة كأنها عذّادٌ لزفرات القلب. الجدران بيضاء لا تُشخّص، والكراسي مُوزّعة بدقّة كأنها تعلّمت التوازن من خطى الأطفال. على كل كرسي جلس شخص... لا أحد يعرف من يكون الآخر، لكنّهم شعروا بأنّهم يعرفون شيئاً عن بعضهم دون أن يتبادلوا كلمة.

في مقدّمة الدائرة، وقف الطبيب... ليس بطبيبٍ فعلي، بل كان يُدعى "الوعي". لا معطف أبيض، لا سماعة على الكتفين، فقط نظرات ثاقبة وصمتٌ يحمل أكثر مما تحتمله جدران هذه الغرفة. حين تحدّث، بدت الكلمات كأنها لا تخرج من فمه، بل من داخل الشخص الذي يسمعه.

قال بنبرة منخفضة:

— «الجميع هنا لأنّ شيئاً ما في الداخل يُؤلم... لكننا سنحاول أن نسمعه.»

لم يُطلب من أحد أن يتحدّث. الصمت ظلّ مُمتدّاً... حتى تقدّمت امرأة شاحبة اللون، ترتجف أطرافها، وعيناها غائرتان كمن ظلّ مستيقظاً طيلة عمره.

قالت بصوتٍ باهت:

— «اسمي القلق. أستيقظ قبل الجميع، وأنام بعدهم. لا أُجيد الانتظار ولا الراحة. أراقب الباب والنوافذ والأفكار. حين يسكت العالم أصرخُ داخلي. لا أثق بأحد، حتى النوم.»

لم يقاطعها أحد، لم يُعقّب عليها الوعي، بل أشار لها أن تجلس، وكأنّ مجرد الحديث هو الدواء الأوّل.

بعد لحظة، رفع شاب نحيل يده. عيناها كمرأتين تكسرتا قبل النضج.

— «أنا الندم... جئت متأخراً كعادتي. حين يُخطئ الجميع ويواصلون، أعود لأقف في مكان الجريمة. أستلّ الصور القديمة، أفتش في أصوات لم تعد

تُجيب، وأعيد المشهد ألف مرّة. كل شيء كان يمكن أن يكون أفضل...
لكنني لم أكن أفضل.»

هبت نسمة داخلية، لم تكن من النافذة، بل من القلب. شعورٌ غريب بالاعتراف
الصامت، وكأنّ الندم الذي تحدّث لم يكن وحده، بل سحب معه فيضاً من ذكريات
الحاضرين.

اقتربت فتاة في الثلاثين من العمر. متعبة في ملامحها، حافية الداخل.

قالت:

– «أنا الأمل. لا تستغربوا وجهي، أعرف أنني تغيّرت. كانوا يقولون عني
أنني مشعة، مشرقه، لكنني تعلّمت أن أبتسم رغم أنّ النور لا يأتي. لقد تمّ
دفني مرّات، وأنا حيّة. شطبت من دفاتر الأمنيات، وأغلقت دوني الأبواب.
ومع ذلك، كل صباح... أضع قليلاً من الراج وأبتسم، لعلّي أُنقذ الحياة
بأنّني ما زلت أصلح لها.»

تنهّد "الوعي"، ثم قال:

– «لا أحد في هذه الغرفة جاء صدفة. أنتم لا تعلمون، لكن أصحابكم – أولئك
الذين سكنتم داخلهم – يئنّون بكم. نحن اليوم لا ندأويكم أنتم فقط، بل
نُحاول أن نُخفّف وطأتكم على من أنتم جزءٌ منهم.»

كان هناك رجلٌ في آخر الدائرة، أصلع الرأس، يداه مشدودتان كأنّه قادمٌ من
المعركة.

قال بجفاف:

– «أنا الغضب. أعترف أنني لست نقيّاً. أشعل النار كي لا أموت برداً، أصرخ
لأنّ أحداً لم يسمعني حين همست. يلومونني، لكنهم ينسون أنني ولدت من

الظلم. كل ما أردته أن أدافع، لكنني انزلت إلى الهجوم. صاروا يخافونني... وأنا فقط خفت أولاً.»

في تلك اللحظة، كانت الدائرة تضيق. لم تعد غرفة، بل كأنها قفص من اعترافات، أو علبة قلب مفتوحة على مصراعيها.

رفعت "السكون" يدها، كانت سيدة خمسينية، تضع نظارات سميكة وتتكلم ببطء:

- «أنا السكون. يُحبّني من تعبوا، ويهرب مني من اعتادوا الضجيج. لكنني أعرف أن الجميع يعود إليّ في النهاية. حين تذهب الأصوات، تظلّ عيناى فقط تُراقبكم. أحياناً أكون راحة، وأحياناً قبراً صغيراً في صدوركم.»

اقترب "الوعي" هذه المرة، مشى بخطى بطيئة وقال:

- «أنتم، بكل تشوّهاتكم، لستم الأعداء. أنتم إشارات، رسائل، جراح مفتوحة تُشير إلى مواضع الألم. وما لم تُسمع تلك الإشارات، سيتحوّل الألم إلى عُقد، والعُقد إلى حروب داخلية. فلنعترف بكم... لكن لا نُسلم أنفسنا إليكم.»

رفع يده نحو السقف، فتبدّلت الإضاءة. صارت الغرفة دافئة، أشبه بمساحةٍ قلبية أكثر منها علاجية. ثم قال:

- «لن نُحاكم مشاعركم. بل نُعيد تعريف أدواركم. الندم ليس سجنًا، بل تذكرة للنجاة القادمة. القلق ليس لعنة، بل حارسٌ حذرٌ يمكن تهدئته. الأمل ليس كذبة، بل مقاومة. الغضب ليس عدوًا، بل حارسٌ مُتعب. السكون ليس موتًا، بل حضن مؤقت.»

عندما هدأت الغرفة قليلاً، وبدأت الهالات تخفت من حول الوجوه، رفعت شابةً رأسها، لم تكن تتجاوز العشرين، شعرها منكوش كأنّ الريح لم تغادره، وعيناها تغزلان سطوراً من الانتظار.

قالت بصوتٍ أقرب للهمس:

- «أنا التوق. لستُ حزناً، ولا فرحاً. أنا ذاك الشعور الرمادي الذي يأتيك حين تُحدّق في شيء لا تملكه، لكنك لا تستطيع أن تكفّ عن الرغبة به. قد أكون وجهاً لم تلمسه، أو حضناً لم تدخله، أو حياة لم تعيشها. أعيش على الأطراف... لا داخل الحلم ولا خارجه. أنتمي إلى كل ما لم يكن، وما قد يكون.»

همس شخصٌ بجانبها دون أن يلتفت إليها:

- «أنا الحنين. أعرفك جيداً. نمشي سوياً في الليل.»

كان رجلاً في الأربعين، بدا عليه الهدوء، لكنه كان هشاً في صمته. أضاف:

- «أنا لا أموت... أتحوّل. قد أكون أغنيةً في الراديو، رائحة عطرٍ في الشارع، أو حتى قطعة خبز تُشبه ما كانت تصنعه أُمي. أعيش في التفاصيل... وأميت من يسكنني.»

ضحك "الوعي" بخفة، لا سخرية في ضحكته، بل دفع.

قال:

- «أنتم الاثنان تُجيدان الكتابة، لكنكما لا تجيدان الشفاء. الحنين والتوق: أنتمأ مراًياً مفتوحة على الماضي والمستقبل، والروح لا تُشفى إن لم تسكن لحظة الحاضر.»

ثم وقف رجلٌ في منتصف الدائرة، طويل القامة، ملامحه حادة.

قال بنبرة مشبعة بالثقة:

– «أنا الإنكار. لا أحب هذه الجلسات. ولا أؤمن بكم أصلاً. لا القلق موجود، ولا الغضب ضروري. كل ما يحدث تافه. الإنسان يجب أن يكون قوياً، صامتاً، عقلانياً. لا مكان للمشاعر في هذا العصر.»

ساده صمتٌ ثقيل بعد كلماته، لكنه لم يُحرّك ساكناً. وقف هناك بثبات، كما لو أنّ وجوده بحدّ ذاته يُشكّل تحدّياً.

اقترب "الوعي" منه، نظر إليه طويلاً، ثم قال:

– «أنت أكثرهم وجعاً. لأنك لا تبكي. لأنك الوحيد الذي يحمل النعوش على ظهره دون أن يُقرّ بأنّ هناك موتى.»

وانكسر شيءٌ صغير في وجه الإنكار، لم يكن واضحاً، لكنه كان حقيقياً. لم يرد، فقط عاد إلى مقعده وهو يُمسك بيديه كمن يخشى أن ينفلت منهما شيء.

ثم... كانت المفاجأة.

من زاويةٍ لم يلتفت إليها أحد، تقدّم طفل.

نعم... طفل. لم يتجاوز العاشرة، ثيابه قديمة، وأقدامه حافية. عيونه تتسع على كل شيء كأنه يرى العالم للمرّة الأولى، أو للمرّة الأخيرة.

قال بصوتٍ نقيّ:

– «أنا الطفولة.»

ولم يتكلم بعدها. فقط جلس على الأرض، وعيناه تجولان في الوجوه.

قال الوعي بنبرة هادئة:

– «هل رأيتموه؟ إنه في كلّ واحدٍ منكم. اختبأ خلف ما تعلّمتموه، وما جرحتم به، وما قيل لكم إنه لا يليق بكم. هذا الطفل لم يمت، لكنه خائف. كلّما رآكم تصرخون، تنكرون، تتدمون... اختبأ أعمق. نحن لا نحتاج علاجًا نفسيًا بقدر ما نحتاج من يحتضن الطفل الذي كنّا.»

ساد صمتٌ طويل.

ثم قالت "الخدلان"، ولم يعرف أحد متى دخلت الغرفة. كانت امرأة في أواخر العمر، تُشبه الأرامل في الروايات القديمة. صوتها مكسور كمن اعتاد الفقد:

– «أنا الخدلان. لا أحدث الجروح... أنا فقط أفتحها. أذكرك بأنك لم تكن كافيًا. أن من أحببته اختارك حين احتاجك... لا حين أحبك. أن الصديق الذي وعد، نسي. أن الأم التي كان يفترض أن تحتوي، كانت تجرح وهي تظن أنها تربي.»

أطرقت الرؤوس، حتى الغضب. لم يبقَ في المكان سوى صدّى يشبه الاعتراف الجماعي بالخسارة.

أخذ "الوعي" نفسًا طويلاً، كمن يحاول أن يُمسك بخيط النجاة وسط هذا البحر المتلاطم من الأرواح، ثم قال:

- «أنتم لستم أمراضاً... أنتم أصوات. والذين يحملونكم ليسوا مجانين. لكنهم بحاجة أن يسمعوكم دون أن تتلبسوهم. الصراخ لا يُسكت بالهرب، ولا الوجد يُعالج بالتجاهل. بل بالمواجهة، بالاحتضان، بالفهم.»

أشار نحو الساعة الرملية:

- «الوقت لا يشفي... بل الفهم هو الذي يفعل.»

ثم وقف وأدار الدائرة نحوه، وجعل الجميع ينظر إليه. رفع يده اليمنى، وقال بصوتٍ عميق:

- «من منكم يريد أن يُسامح نفسه؟»

تردد البعض. لكن يداً صغيرة ارتفعت أولاً. كانت يد الطفولة.

ثم تبعها يد "الأمل"، ثم "الندم"، ثم "الغضب"، ثم "القلق"، واحدةً تلو الأخرى... حتى آخر الأصابع التي ارتفعت كانت يد "الخذلان".

قال الوعي وهو يُغلق دفتره:

- «هذه ليست نهاية الجلسة... هذه بدايتها. لقد بدأتُم تُنصتون. والبقية ستأتي.»

خرجوا واحداً تلو الآخر، كلٌ منهم ترك وراءه كرسيًا دافئاً بالاعتراف.

وحده "الوعي" بقي في الغرفة، جلس، تنفّس بهدوء، وكتب على الجدار:

"في داخل كلّ إنسان... جلسة لم تُعقد بعد. افتحوا الباب."

ثم أطفأ الضوء.

الفصل الرابع المزاد العلني للمشاعر

"هنا تُعرّف القلوب بأسمائها الأولى،
تُفكك الأحاسيس وتباع في وضوح الفقد.
مرحبًا بكم... في مزادكم الأخير."

في قاعةٍ لا جدران لها ولا سقف، تتدلى من السماء لافتة صفراء باهتة، تترنح مع الريح كأنها تتنفس بصعوبة. كُتب عليها بخطٍ مرتجف، وكأن من خطّه كان يبكي:

"المزاد العلني للمشاعر – الدخول مجاني... والخروج مستحيل."

كان الضوء ضبابيًّا، كأن الشمس تشاهد من تحت الماء. ضجيج هادئ، كأنه تنفّس جماعي لمن ماتوا واقفين. وجوه الحاضرين مغطاة بأقنعةٍ من النقد، لا تُظهر ملامحهم... فقط أعينٌ تلمع بالجوع. لا أحد منهم يبتسم. ولا أحد يبكي. كانوا جميعًا يشبهون اللاشيء.

في منتصف القاعة، وقف "الدلال"...

رجلٌ بوجهٍ نصفه لحم ونصفه حديد، كأن الحياة ندمت على خلقه وأكملته بالإكراه. يحمل مطرقة من زجاج، وكلما أنزلها على الطاولة، تشققت الذاكرة وسقطت شظاياها في أرواح الحضور.

ضرب المطرقة أول مرة.

– «نفتتح المزاد... أول ما نعرضه اليوم: الثقة. عمرها كان طويلًا، لكنها استنزفت في زمنٍ قصير. كانت بيضاء... الآن رمادية. من يزايد؟»

تقدّم أول رجل.

أنيق، متخم بالكبرياء، يرتدي بدلة من التصنّع وربطة عنق من التلاعب.

قال بلهجة واثقة: – «أدفع صورتها. أريدها ليراني الناس شريفًا... لا لأشعر بها. أريدها زينةً على كتفي، لا زادًا لقلبي.»

صفق البعض. أُعجبوا بالعرض.

لكن من الزاوية، صدح صوت مبجوح.

كانت فتاةً بثيابٍ ممزقة من الخذلان، تحمل على قميصها آثار طعنة.

- «لا! لا تتبعها له. لقد حطّمها مرةً وسيرتديها الآن كوسام!»

ضحك الدّلال ببرود:

- «هنا لا نبيع الأصل... بل ما تبقى منه.»

ثم رفع المطرقة:

- «بيعت! لمن يدفع أكثر... لا لمن يستحق أكثر.»

ضربة. وانتهت الثقة.

العرض التالي: الأمل.

دخل بخطى مترددة، يرتدي ثوبًا أصفر ممزق، يلتفت يمنة ويسرة كمن فقد أمه في حريق. كان وجهه وجه طفل، وصدره يحمل ندبة.

قال الدلال: - «هذا الأمل لم يُستهلك كثيرًا، لكنّه أرهق من الانتظار. كان يعد النجوم ذات ليلة، فاكتشف أنّ السماء لا ترد. من يشتريه؟»

رفعت امرأة يدها. كانت ترتدي فستانًا أسود، كأنها في حداد على ذاتها، وعيناها مملوءتان بالكحل كأنها أخفت فيهما بحيرة كاملة.

قالت:

- «أريده لأزّين به نافذتي كل صباح. كي يظنّ الناس أنني بخير، وأنا لست كذلك.»

سأله الأمل بصوتٍ بالكاد يُسمع:

- «هل تؤمنين بي؟»

أجابت دون تردد:

- «لا. لكنني أحتاجك كواجهة للنجاة. لا أكثر.»

لم يُجب. فقط أطرق برأسه، وتقدّم نحوها.

ضربة مطرقة... وبيع.

ثم دخل الغضب.

لم يُدعَ... بل اقتحم. صدره عارٍ، وجروحه مفتوحة. وجهه يشبه البركان، وذراعه تقطر غضبًا.

صرخ:

- «لن أباع! أنا من يشتري الجميع! أشتري العقل فأخرسه، وأشتري القلب فأعميه. أنا العملة الوحيدة التي لا تفقد قيمتها، حتى في الفقر.»

ضحك الدلال للمرة الأولى.

- «لكننا في مزاد يا عزيزي... كل شيء يُباع، حتى القنابل.»

رفع شاب يده. وسيم، لكن في عينيه سكين. قال بهدوء قاتل:

- «أريده. الغضب يُمنحني صوتًا حين أُخذل. يلبسني الرجولة، ويُخفي عاري.»

ضربة.

- «بيعت. مقابل صرخةٍ لم تجد من يسمعها.»

توالت العروض.

الشوق... أرادت شاعرة أن تُجفّفه وتحبسه في كتابها.

الندم... رفع شيخ سبّابته، وقال: "سأعلّقه في صدر الجامع، ليُذكّر الناس بموتهم قبل أن يموتوا."

الخوف... تهافت عليه الساسة، مزايدين بأعداد الشعوب لا بقلوبهم. قال أحدهم: - "به أقيم سلطتي، وأبني إمبراطوريتي. فكلّما خافوني... أحبّوني زيفًا."

كانت المشاعر تُنتزع من أصحابها وتُباع... لا لمن يستشعرها، بل لمن يُتقن تمثيلها.

حتى جاء الحب.

متأخرًا. عاريًا. بلا بطاقة تعريف.

يحمل قلبًا بين يديه... لا يخبئه، بل يعرضه علنًا، كما يُعرض الشهيد على نعشه.

كان يمشي بثقل الناجين من المجازر، عينيه لا تبحثان عن مشترٍ، بل عن ملجأ.

همس الحاضرون:

- «هل ما زال موجوداً؟»

- «ربما نسخة مزيفة؟»

– «لا، انظروا... إنه ينزف صدقاً.»

قال الدّلال، هذه المرّة بنبرة مختلفة:

– «هذا الحُب... ليس خاماً. لقد مُرّغ في الغياب، وبُترت أطرافه في علاقات مشوهة، وسُجن في أجساد لا تؤمن به. لكنه... لا يزال ينبض. من يزايد؟»

صمتٌ مطبق.

حتى أولئك الذين اشتروا الأمل والندم والثقة... خافوا من الحُب.

خافوه لأنه لا يمكن تزييفه بسهولة.

خافوه لأنه لا يُشترى... بل يُمنح.

خافوه لأنه عارٍ... لا يَحتمي بالذرائع.

وفجأة... تقدّمت فتاةٌ نحيلة.

لا وجه لها... فقط ظلّ، كأنها فقدت ملامحها ذات خذلان.

قالت بصوتٍ ليس صوتاً، بل ارتعاشة:

- «لن أشتريك... بل أعيدك لنفسك.»

صمت الجميع.

نظر الدّالّ إلى المطرقة... ثم أنزلها ببطء.

لكنّه لم يضرب.

لأول مرة... انسحب الشعور من المزاد... دون صفقة.

خمدت الأضواء.

سقطت اللافتة.

توقّف العرض.

وظلّت لوحة واحدة معلقة في العدم:

"ليس كلّ ما يُباع يُستعاد.

وبعض المشاعر... إن بعثها، لا تعود."

الفصل الخامس

غرفة المرايا النفسية

"كلّما واجهتُ نفسي، صارت المرايا أكثر صدقًا... وأكثر وحشية."

_قالها مريض نفسي

لم يكن هناك باب.

كان صدعًا في جدار الذات، انفتح فجأة، وكأن الذاكرة ضاقت بصمتها وقرّرت أن تنطق.

دخل "العارف" دون أن يدعى، تمامًا كما يُستدعى الألم من دون إذن.
كان عاريًا من كل يقين، يجرّ خلفه ظلًا أثقل من خطاه.

كانت الغرفة تشبه كهفًا من الضوء المنكسر،

جدرانها ليست من طين ولا حجر...

بل من مرايا حيّة.

مرايا تتنفس.

تحقق إليه كما لو أنها تعرفه أكثر مما يعرف نفسه.

وقف في المنتصف، بين الانعكاسات، لا يعلم إن كان في الداخل أم الخارج.

كل مرآة تحمل وجهًا،

لكن لا وجه يُشبهه...

أو هكذا ظن.

المرآة الأولى: "المُتَوَقَّع"

شابّ يجلس على طاولة، يكتب في دفتر أحلامه،
كل سطر يبدأ بـ "سأكون..."
وكل صفحة تنتهي بخيبة.

عيناه مليئتان بجوع التقدير،
صوته هامس، كمن يحاول أن يُقنع العالم أنه يستحق مكاناً فيه.
كان يُرهق نفسه ليس ليكون مميزاً،
بل فقط ليُرى.

اقترب "العارف"، فشعر بشيء في صدره يُحترق.
تذكر عدد المرات التي انتظر فيها تصفيقاً،
فلم يسمع سوى صمت يصفعه.

ابتعد، قبل أن يبتلعه الظلّ.

المرآة الثانية: "الْمُتَقَمِّص"

شخصٌ يتبدّل أمامه...

مرة يضحك، مرة يبكي، مرة يزأر، مرة يصمت.

كلّ تعبير وجهٍ... أقنعة.

وكلّ قناعٍ... أقرب للنجاة من الحقيقة.

لم يكن يُجيد أن يكون نفسه،

فقرّر أن يكون كل أحد.

نحت ابتسامته من ركام المجاملات،

وصنع صوته من أصدااء الآخرين.

همس "العارف" لنفسه:

"كم مرة لبستُ وجوهاً لا تشبهني، خوفاً من أن أرفض حين أكون أنا؟"

المرأة الثالثة: "الناجية"

امرأة، ظهرها مقوس من الثقل،
تحمل بيدٍ طفلاً، وبالأخرى قلبها.
تمشي في حقل ألغام من الذكريات،
كل خطوة تذكرها بمن سقط، وبمن خان، وبمن ابتسم فقط ليطعن.

لم تكن تبكي، بل تنتظر بثباتٍ مخيف.
كأن دمعها مات منذ سنوات،
وصارت تُقاوم بالبُكم.

رآها "العارف" كأنها ظلّه الآخر...
لم يكن امرأة، لكنّه عرف كيف تبدو خيبة الأمان،
وكيف يصير الصبر طُعنة صامتة.

وفي عمق الغرفة...
وقفت مرآة مشروخة.

لم يكن بها وجه،
ولا ظل،
ولا صوت.
كانت كالسكون حين يسبق العاصفة.

اقترب منها.

مدّ إصبعه المرتجف ليمسّ الزجاج،

لكن الشروخ اتسعت فجأة...

وانفتحت كفٍّ يصرخ.

لم يُظهر له الزجاج ملامحه،

بل أخرج صوتًا قديمًا،

صرخة مكتومة من طفلٍ سقط،

بحث عن حضن فلم يجد،

عن تفسير ولم يُجب،

عن دفءٍ فوجد جدارًا.

تراجع "العارف"،

لكنه لم يهرب.

لقد عرف هذا الصوت.

كان أول مرة تعلّم فيها أن يُخفي مشاعره كي لا يُزعج أحدًا.

أول مرة ابتسم وهو يتمنى البكاء.

بدأت الجدران تذوب.

لم تعد مرايا.

صارت ماءً...

كأنّ اعترافه حلّل البنية الكاذبة لكل ما اعتقد أنه هو.

جلس "العارف" في منتصف الغرفة،

لا منتصرًا... ولا منهزمًا.

بل كائنًا فقط.

كائنًا نجى من نفسه، ولو مؤقتًا.

همس، وكأن العالم كله يصغي:

➤ "أعذرنى يا أنا..."

أعذرنى لأنني خذلتك حين صدقت الآخرين.

لأنني سكتُ حين كان يجب أن أصرخ.

لأنني أردت أن يحبّك الناس أكثر مما أحببت نفسك."

ثم وقف.

المرأة المشروخة لم تُصلح نفسها،

لكنها لم تعد تُخيفه.

عرف الآن أنها ليست عيبًا...

بل تذكرة.

تُذكره بأن ما انكسر فيه... هو ما جعله بشرًا.

الفصل السادس

لقاء مؤجل مع طفلٍ نُسيَ في الزاوية

"بعض الجروح لا تُشفى بالمضادات، بل بحضنٍ تأخر عشرين عامًا."

في ساعة لا توقيت لها،
وفي بقعة لا تُقاس بالمسافة،
كان رجلٌ يمشي في عقلٍ يشبه أطلال مدينة نُكبت بحربٍ طويلة.

لا صوت،
لا ظل،
فقط ارتدادات قلبٍ مرهق... وأصداء أقدامٍ تخطو فوق حطامٍ داخلي.

جاءه نداء... لم يُعرف مصدره.
ورقةٌ قديمةٌ ظهرت فجأةً بين يديه. كأن أحدهم دسّها تحت جلده منذ الطفولة،
وظلت هناك، تنتظر أن يتذكّر.

كُتب عليها بخطٍ مألوف:

"تعال... ما زلتُ هنا، أعدّ الثواني."

**

تقدّم نحو فراغٍ يشبه الذاكرة...
بلا خرائط، بلا إرشادات، سوى ذاك الإحساس الغامض بأن شيئاً منه يُنتظره.

كانت الأرض مرصوفة ببلاط من الذكريات،
يتشقق تحت خطواته كأن كل ذكرى تطلب حساباً مؤجلاً.

الجدران بدأت تهمس:

صوت أم تضحك في الصباحات البعيدة...

طفل في فناء المدرسة يحدّق بصمتٍ نحو الآخرين...

طفل في الزاوية، لا يُسأل، ولا يشتكي، ولا يُفتقد.

**

ثم، عند نهاية المسير،

وقف أمام باب خشبي صغير.

باب يبدو أنه بُني ليُغلق على شيء عميق... لا يريد الخروج، ولا يُجيد الانتظار.

انحنى ليدخل.

وفور دخوله...

اجتاحه هواءٌ مختلف، محمّل برائحة طينٍ قديم، ودموعٍ لم تُدرف، وكلماتٍ خُزنت
طويلاً تحت الجلد.

في منتصف الغرفة...

طفل صغير، يجلس القرفصاء على الأرض، يخطّ شيئاً بأصابعٍ ملوّثة بالحبر على
جدارٍ متخيل.

كان يرسم بيتاً دون أبواب،

وشخصاً واحداً داخله، ينظر من نافذة غير موجودة.

**

اقترب الرجل بتردد.

خطواته تُحدث صدى يكشف كم هو غريب عن هذا المكان.

لكن الطفل لم يلتفت.

قال بصوتٍ خافت، مشبع بالحزن، كأنه يتحدث إلى فراغٍ اعتاد صمته:

"تأخرت كثيرًا..."

ارتجف قلب الرجل.

هذا الصوت... لم يكن غريبًا.

هو صوته، قبل أن ينكسر.

قال محاولاً تبرير غيابه:

"ضعت... لم أكن أعرف الطريق إليك."

أجابه الطفل دون أن يدير وجهه:

"بل كنت تعرف... لكنك كنت تهرب."

هربت حين بكيت ولم أفهم.

حين صرخت ولم تُنصت.

حين قلت: أنا خائف... وقلت لي: اصمت، لا تفضحنا."

**

جلس الرجل أمامه.
حدّق في عينيه...
وكان فيهما مطرٌ قديم، لا يتوقّف.

مدّ يده ليحتضنه،
لكن الطفل تراجع،
وقال وهو يرتعش:

"لا تلمسني..."
تركتني وحيدًا حين احتجّك أكثر من أي أحد.

سقطت يد الرجل كمن أسقط في النار.
بلا أذار.
فالآلم لا يقبل التبرير، والطفولة لا تنسى من باعها.

**

قال الطفل وهو يضغط على صدره:

"أتذكر حين كنتُ أضع يدي هنا وأهمس: اصبر...
سيأتي، سيأخذني بعيدًا.
سيضحك معي، لا يضحك عليّ.
سيخبرني أن الخوف ليس عارًا، وأن البكاء ليس ضعفًا.

سيعلمني أن أتكلم دون أن يخبرني أنني مزعج."

ارتعش وجه الرجل.

غامت عيناه.

قال بصوتٍ أقرب إلى الاعتراف:

"كنتُ أتعلم كيف أنجو..."

لكنني نسيت أن أحملك معي."

**

سكت الطفل.

ثم، ببطء، رفع عينيه.

ونظر إليه نظرة لا يحملها إلا من ظلّ سنوات طويلة ينتظر اعتذارًا.

ثم قال بصوتٍ مكسور:

"هل يمكنني الخروج من هنا؟"

أريد أن أرى الضوء...

لقد انتظرتك طويلاً."

**

أوماً الرجل، والدمع يقطع صمته:

"تعال..."

اسكنني كما كنت.

علّمني كيف أضحك من دون أقتعة.

اجعلني أصدق أنني لست غريبًا عن نفسي."

**

وقف الطفل، بتردد.

اقترب... ثم، دون مقدمات،

ألقي بنفسه في حضنه.

وبكى.

وبكى الرجل.

وبكيا معًا...

لا كمن ينوح، بل كمن يشفى.

**

في تلك اللحظة،

انهارت الجدران...

تفتت السقف،

وامتزجت الأرض بعشبٍ أخضر.

كل شيء تغير...

الغرفة تحولت إلى حديقة،
والصمت تحول إلى موسيقى خفية.

والعقل... بات أكثر اتساعاً.

**

طفل ورجل.
خرج الأول من ظلمة النسيان،
وخرج الثاني من عباءة الادعاء.

وفي المنتصف...
التقيا.

**

"أنا الطفل الذي نسيته..."
وأنا الرجل الذي تمنيتّه."

**

في المصالحة مع الذات...
لا تُشفى الأعوام، بل تُولد من جديد.

الفصل السابع
الساعة المتوقفة في صدره

"لم يكن متأخرًا عن العالم... فقط بقي واقفًا عند اللحظة التي توقفت فيها
الساعة."

لم يكن يعرف أن في صدره ساعة.
ولا أنه كان يعيش حياته كلّها،
بعقارب لا تتحرك...
ودقات لا تُسمع إلا في الخيال.

كان يسمّي شعوره بالتيه "تأخُّراً".
يسمّي عدم إحساسه بالأيام "تعباً".
يسمّي انطفاءه البطيء "نُضجاً".

حتى جاء اليوم الذي انكشفت فيه الصدفة الكبرى.

**

كان وحده، كعادته،
يجلس في الليل يشرب الصمت على مهل،
حين شعر بشيء ينبض داخله —
نبض لا يشبه القلب، بل كأنه صوت آتٍ من عمق الحديد.

رفع يده إلى صدره،
فشعر ببرودة خفيفة...
كأن شيئاً معدنياً يئنّ هناك،
محشوراً منذ زمن،
ينادي دون صوت.

**

وللمرة الأولى،
سمع صدى الصوت بوضوح:

"أنا الساعة التي نسيّت أن تصلحها."

"أنا التي توقفت فيك... في تلك اللحظة تحديداً."

**

ارتبك.
سأل بصوتٍ متردد:
"أي لحظة؟"

جاءه الجواب بصوتٍ يشبه الشرخ:

"حين بكيت ولم ينتبه أحد...
حين صرخت من خذلانٍ أول،
حين أتاكَ الوداع بلا تفسير،
أو الموت بلا وداع."

**

في تلك اللحظة...
بدأ يتذكر.

تذكر كيف انكسر صوته يوم حاول أن يشرح ما لم يفهم.
تذكر كيف تجمدت عيناه أمام خبر الفقد.
تذكر تلك الليلة التي تغير بعدها كل شيء...
كيف صار يضحك أقل،
وينام أقل،
ويحلم أقل.

**

نعم... الساعة توقفت حينها.

وهو — دون أن يدري —
ظلّ يعيش عمرًا كاملاً خارج الزمن.
يأكل في غير أوانه،
يبكي بلا موعد،
ويفرح حين لا يشعر بوجع — لا حين يكون سعيدًا حقًا.

**

قالت له الساعة:

"حين لا تُداوى الجراح،

تتحول إلى ساعاتٍ متوقفة.
وحين يتوقف الزمن في الداخل...
لا ينفع كل ما يتحرك في الخارج."

**

جلس في صمتٍ طويل.
ثم سأل:

"ولماذا الآن؟ لماذا أسمعك اليوم فقط؟"

جاء الجواب رقيقاً:

"لأنك أخيراً توقفت عن الجري.
لأنك تعبت من تمثيل الحياة.
ولأن هناك في داخلك طفلاً...
بدأ يستعيد صوته."

**

نظر حوله.
كل شيء بدا عادياً،
لكنه كان يشعر أن الزمن تغير...

أن الهواء أصبح أكثر صدقًا،
وأن قلبه يشبه بيتًا عاد إليه دفء قديم.

**

قالت له الساعة:

"يمكنك إصلاح..."

لا بتقويم الوقت،

بل بتقويم الذكرى."

"عد إلى تلك اللحظة،

واجلس مع الطفل الذي خاف،

امسح دموعه،

وقل له: لقد نجونا، حتى لو ببطء."

**

أغلق عينيه...

ورأى نفسه هناك:

في الغرفة ذاتها، في اللحظة ذاتها،

واقفًا أمام خذلان كان يعتقد أنه نهايته.

لكنّه الآن يعرف:
كانت مجرد وقفة...
وليس نهاية.

**

فتح عينيه،
ووضع يده على صدره.
للمرة الأولى منذ سنوات...
شعر بدقة.

صوت خافت...
نقرة صغيرة...
ثم...
تكتكة.

**

لم تعد قوية،
لكنها حقيقية.
صوت حياة تعود،
ببطء،
لكنها تعود.

**

"أحياناً... لا تحتاج أن تبدأ من جديد،
بل فقط أن تكمل اللحظة التي توقفتَ عندها."

"أن تربّت على قلبك، وتقول له:
ها أنا أصلحتك، يا صغيري.
هيا لنُكمل."

الفصل الثامن

المقبرة التي دفنتُ فيها نفسي

كانت السماء رمادية، لا غائمة ولا صافية، كأنها لا تعرف لأي شعور تنتمي.
الريح تسير بلا وجهة، تداعب التراب في خفةٍ كمن يوقظ شيئاً نائماً منذ دهر.
ولم يكن في الطريق أحد... سواه.

كان يمشي حافياً، ووجهه متجةً إلى مكان لا يعلمه، إنما يشعر به.
قلبه يهزه نداء خفيّ، لا يأتي من الخارج، بل من الداخل... من حفرةٍ مظلمةٍ لم
يتجرأ على النزول فيها من قبل.

كانت هناك لافتة صغيرة، مغروسة بين الأعشاب اليابسة، كُتب عليها بخطٍ مائلٍ
باهت:

"هنا دُفِنْتُ، أكثر من مرّة."

توقف.

نظر حوله. لا شيء. لا بشر، لا قبور، لا تماثيل رخامية، لا نواح.
إنها مقبرة بلا شواهد، ولا تاريخ... لكنها تحمل ثقلًا غريبًا على صدره، كأن قلبه
يعرف كل شبر منها.

تقدّم ببطء.

كلما خطا خطوة، ظهرت أمامه تلة صغيرة، مجرد ارتفاع في الأرض، كأن التراب
فيها تنفّس مرة... ثم هدأ إلى الأبد.

عند أول تلة، وُجد حجر منسيّ، محفورٌ عليه:

هنا دُفنت شخصيةً متمرّدة.

كان يحلم، يجادل، يصرخ، يقول "لا".

قتله الترويض.

ضُرب كثيرًا لأنه كان "كثيرًا".

جلس بقربها.

تذكّر ذلك الصبي، الذي كان يرفض أن ينحني.

ذلك الذي عوقب لأنه لم يكن سهل الانكسار.

تذكّر المرات التي صرخ فيها: "هذا ليس عدلاً!"

وكيف نظر إليه الكبار ببرودٍ قائلين: "تعلم الأدب."

بكى قليلًا. لا دموع، بل وجعٌ خافت يتسرّب من صدره كما يتسرّب النمل من الشقوق.

ثم قام.

واصل الطريق.

وصل إلى التلة الثانية، وكان عليها حجر آخر، مكتوب عليه:

هنا دُفنت الأحلام الطفولية.

أن يصبح طيارًا. أن يخترع دواءً يشفي العالم.

أن يُنقذ أمه من البكاء.

أن يبني بيتًا على قمة شجرة.

ركع.

يده لامست التراب، فارتجف شيء فيه.

تذكر كيف كانت أحلامه آنذاك نقية، لا تريد مجداً ولا مالاً، فقط... أن يحب، أن يُقَدَّ، أن يفرح.

لكن شيئاً ما على الطريق كسر جناحيه، وعلمه أن "الأحلام لا تطعم خبزاً".

أغمض عينيه طويلاً.

وحين فتحهما، همس:

"سامحني... لأنني تركتك وحيداً كل هذا العمر."

ثم قام.

اقترب من التلة الثالثة، وكانت أقرب ما تكون إلى خيطٍ من التراب.

عليها حجر صغير... خجول.

هنا دفنت أول مرة قال فيها: "لا".

قالها ثم خاف.

وعاد يعتذر، ويكتم صوته، ويُقنع نفسه أن الطاعة نجاة.

ابتسم بسخرية.

تذكر تلك المرة.

قال "لا" فغضب الآخرون.

قال "لا" فخسر صديقًا، أو حبًا، أو وظيفة.

قال "لا" وشعر لأول مرة أن كلمته لا تجد صدرًا يحتويها.

ومنذ ذلك الحين... أصبح يقول "نعم"، حتى حين تنزف روحه داخله.

وضع يده على الحجر وهمس:

"سأعيد لك صوتك... وإن ارتجف."

ثم واصل طريقه.

آخر تلة كانت بعيدة.

مبتعدةً كأنها تخجل من أن يراها.

اقترب... وعيناه تثقلان.

كان الحجر هناك، كبيرًا، مشروخًا من المنتصف.

كأن الحزن ذاته لم يحتمل أن يكون صلبًا.

هنا دُفنت آخر مرة بكى فيها.

كانت دمعة صادقة، حارقة، خرجت من مكان لا اسمه له.

بعدها، ماتت الدموع... وبقي الوجع جافًا.

جلس طويلاً.

هذه التلة بالذات... كانت أثقل من جميع ما سبق.

تذكر جيداً متى كانت. تلك الليلة.

حين خُذل من أقرب الناس.

حين مدّ قلبه ليُحتضن... فارتطم بجدارٍ بارد.

حين أراد أن يبكي، فسمع صوتاً يقول: "توقف عن التمثيل."

فحبس الدمع.

ولم يعرف كيف يُبكي قلبه بعد ذلك.

"يا الله، كم تمنيتُ أن أكون طفلاً يبكي بلا خوف..."

همسها، فاهتز التراب تحته.

...

وقف أخيراً.

أدار نظره على المقبرة كلها... فلم يرَ سوى نفسه.

هنا، كان يدفنها كل مرة، قطعة بعد قطعة.

لا أحد دفنه... هو من فعل.

مشى.

لكن هذه المرة، لم يذهب بعيداً.

في منتصف المقبرة...

توقف.

وجثا على ركبتيه.

بدأ يحفر بيديه العاريتين.

حفرة جديدة.

لكن لا ليدفن شيئاً... بل ليزرع.

من جيبه، أخرج شيئاً صغيراً: بذرة.

ربما كانت حلمًا نسيه، أو جزءاً من نفسه بقي ينبض رغم كل شيء.

وضعها في التراب، وسقاها من ماء عينيه.

قال:

"ليكن هذا القبر بداية.

قبرٌ لا للموت... بل للحياة."

وقف.

ونظر للسماء، فكانت تمطر... لا ماء، بل نوراً.

الفصل التاسع

المعطف الذي لم يكن لي

"أثقل ما نحملة ليس على أكتافنا، بل في قلوبنا..."

- مجهول

لم أكن أذكر متى ارتديته.

لا أعلم إن كان أحدهم ناولني إياه، أم أنني وجدته معلقًا على مشجب الطفولة
وارتديته دون وعي.

لكنه التصق بي، نَمًا معي... بل صار يسبقني بخطوة كلما حاولت أن أكون أنا.

كان معطفًا ثقيلًا، داكن اللون، طويلًا حتى يغطي قدمي، مصممًا على مقاس لا
يشبهني.

واسع في مواضع الحنان، ضيق في حيزات القلب.

له ياقة من الخوف، وجيوب مملوءة بتوقعات الآخرين...

وما كنت أجرو أن أخلعه.

لا لأنني أحببته، بل لأنني خشيت أن يروني بدونه.

كانوا ينادونني: "كم تبدو ناضجًا!"

وكنت أرد بابتسامة لا تخصني، وصمت لا يشبهني.

كنت أرتديه في حفلات النجاح، في عزاء الإخفاق، في كل صباح أستيقظ فيه متعبًا
من كوني شخصًا لست هو.

وفي ليلة ماطرة، وقفت أمام مرآة العمر.

نظرت... ولم أتعرف إلي.

كنت نسخة مرقعة من الآخرين: رقعة من خوف أُمي، رقعة من كبرياء أبي، رقعة
من صوت المدرّس حين قال "كن مثاليًا"، ورقعة من صورة مثالية رسمها
المجتمع لشخص لا يخطئ ولا يخذل.

قلت للمرأة:

- من هذا؟

ردّت الصدى ببرود:

- هذا هو "ما أرادوه" ... لا "من تكون".

مرت سنوات، وأنا أعدّل في أزراره، أطيل أكمامه، أرقّع أطرافه... لأبدو صالحًا للعرض.

لكن شيئًا بداخلي كان يذبل.

كل خطوة أقدمُ عليها كانت تُشبه صدى لأمنيةٍ غيري.

كل نجاحٍ أحققه... كان انتصارًا في معركةٍ لم أختَر خوضها.

وكلما نظرت إلى الآخرين، شعرت أنني لا أمشي... بل أقاد.

وفي مساءٍ داخليٍّ عميق، سقط المعطف فجأة.

لا أعرف كيف.

ربما لأنه اختنق منّي، أو لأنّي أخيرًا تنفست صدقًا واحدًا...

لكنّه هوى عن كتفيّ، مثل جدارٍ قديمٍ قرر أن يمنحني منفذًا للضوء.

وقفت عاريًا من أدواري، من حروبي التي لا تشبهني، من صمتي، ومن القلب الذي صُبّ فيه عمري.

مرّ الهواء على جلدي كأنني أتنفّس للمرة الأولى.

وكان بردًا... لكنه لم يؤذني.

بل ذكرني بأن الحياة خارج المعطف أكثر دفئًا مما ظننت.

جلست، أستعرض حياتي كما يستعرض أحدهم صناديق قديمة في علّية ذاكرته.

وجدت صورًا لي وأنا أبتسم ابتساماتٍ لم أشعر بها.
وجدت شهاداتٍ علقتها على الجدار، دون أن أعلقها على قلبي.
وجدت أصدقاءً أحبوني لأنني ارتديت المعطف الذي يعجبهم... لا لأنني أنا.

فهمت حينها، أن الحبّ المشروط... هو أيضًا معطف.
أن الصداقة التي تتطلب نسخة محسنة مني... هي نوع من أنواع التزييف.

وفي صباحٍ رماديّ، خرجتُ إلى الشارع دون معطفي.
الناس نظروا، بعضهم استنكر، بعضهم ارتبك، وبعضهم ابتعد.

لكنني كنت خفيًا.
خفيًا كأنني ريشة لم تعد تحتاج أن تثبت مكانها فوق حجر.

كنت أنظر للسماء، وأقول:

- لو أنني متُّ الآن، سأموت على الأقل بلامحي... لا بوجهٍ مستعار.

اليوم، لا أرتدي معاطف الآخرين.
ولا ألوم من يرتديها... فكلّنا تعلمنا أن نخفي صدقنا بقطعة قماش.

لكنني أخبرك، أيها القارئ، من ضفةٍ أخرى من التجربة:

إن ثقل هذا المعطف لا يُقاس بالكيلوغرامات، بل بعدد المرات التي كذبتَ فيها على نفسك.

هل ما زلت ترتدي معطفًا لا يشبهك؟

هل ما زلت تخشى أن تظهر بهيئتكَ الحقيقية؟

هل تمشي بخطى غيرك، وتحمل أمانيه بدلًا من أمانيك؟

إن كان جوابك: نعم،

فربما آن الأوان... أن تخلعه.

لا أحد يموت من البرد حين يعرّي نفسه من التصنع للحقيقة،

لكن الكثير ماتوا اختناقًا تحت معاطف التزييف.

الفصل العاشر
مزق الرسائل القديمة

"بعض الكلمات لا تحتاج أن تُقال... يكفي أن تُغفر."
- مجهول

كان الدرج هناك، حيث تركته آخر مرة.
خشبِيّ، موشى بالغبار، تُغطيه طبقة من النسيان المقصود، كأنني حاولت أن أدفنه
تحت الركّام... لكنه ظلّ يتنفس في الظل، ببطء، دون ضجيج.

فتحت الدرج كما يُفتح جرح قديم.
لم يصرخ، لكنه نزف.
وكان النزيف على هيئة أوراق مطوية، مكتوبة بخطٍ راجف، تتناثر فوقها بُقع
باهتة... لم أعد أعلم أهي حبر، أم دمع قديم.

كل ورقة كانت تحوي رسالة.
كل رسالة... كانت أنا.

جلست في الزاوية نفسها، التي كنت أهرب إليها كلما ضاقت الحياة.
وضعت الأوراق أمامي.
يдай ترتجفان قليلاً، لكن ليس من البرد... بل من القُرب.

أقرب من قلبي إلى نفسه.
أقرب من الجرح إلى سكينه.

الرسالة الأولى

كانت موجهة إليه... ذلك الذي وعدني أن يبقى، ثم اختفى كأنه لم يكن.

"كنتَ عالمي الصغير، واليوم صرت ثقبِي الأسود.

ظننتُك مُراسي، فإذا بك ريحًا تقلب سفني.

تركنتي في منتصف الإبحار... دون مجاديف، دون شراع، دونك."

مَرَقَتَهَا.

بلا تردّد.

فبعض الوعود لا تستحق أن تُحفظ في الأدراج، ولا في الذاكرة.

الرسالة الثانية

كانت لها... التي كانت تضحك لي، ثم تضحك عليّ.

"غدرتِ بصدقي وأنا نائم في دفاء ثقتي بك.

ولم أستيقظ إلا على صفعه اسمها: الحقيقة.

لا بأس... سأخبرك سرّاً: الغدر لا يكسرنا، بل يخلع جلدًا لم يكن يليق بنا."

مزقتها.

لكنني ابتسمت... لأنني تجاوزت ما ظننته يومًا نهاية.

الرسالة الثالثة

كانت موجهة إلى أبي، الذي مات دون أن يقول لي: "أنا فخور بك."

"كل ما فعلته، كنتُ أفعله وأنت في بالي.

كنت أبحث في عينيك عن اعترافٍ غير منطوق...

واليوم، وأنا أكبر، أفهم أن بعض الآباء يحبون صمتًا... ويؤلمون دون أن يشعروا."

مزقتها.

لا لأنني سامحته... بل لأنني لم أعد أريد أن أظل ابنًا لجرح.

الرسالة الرابعة

كانت لي.

نعم، مكتوبة بخطٍ مختلف، بكلمات كأنها نُزعت من قلبٍ كان يحاول النجاة.

"أعرف أنك متعب.

أعرف أنك سئمت من أن تُجاهد في معارك لم تخترها.

لكني أوّمن بك، ولو لم يؤمن بك أحد.

لا تنس... أنا هنا، وسأظل."

توقفت.

عانقت الورقة، كما يُعانق الغريق طوق نجاته.

ثم طويتها بلطف، ووضعتها على صدري... حيث تنتمي.

كل الرسائل الأخرى... لم أقرأها.

يكفيني ما انسكب.

بعض الجراح لا تحتاج إعادة، وبعض الأسماء يجب أن تُمحي لا أن تُروى.

جمعتها كلها في كومةٍ صغيرة.

وفي صمتٍ يشبه الاعتراف، أشعلت عود الثقاب،

ورأيت الكلمات تحترق... وتتحرق.

لم أكن أود الانتقام من الماضي.
كنت فقط أريده أن يخرج مني.

كأن كل ورقة كانت شظية، وكل حرف شوكة.
والآن، أنا أخيرًا دون أشواك.

فتحت النافذة.
جعلت الرماد يتطاير في الريح، كأمنية لم تعد تهمني.

لم أعد بحاجة إلى أدراج تخبيئ أحزاني.
ولا رسائل لم تُرسل.
من أراد أن يسمعني، سيجدني بلا خطاب.
ومن لا يريد، فليصم أذنيه.

لكن تلك الرسالة...
التي كتبتها لنفسي،
التي لم تخن، ولم تهرب، ولم تُخفِ وجهها...

سأحتفظ بها.

لا لأنها مميزة... بل لأنها صادقة.
وأنا، بعد كل هذه السنوات، لا أطلب من الحياة أكثر من صدق واحد،
يقول لي:

"أنت كافٍ... حتى لو لم يفهمك أحد."

الفصل الحادي عشر
لحظة المواجهة

في غرفةٍ بلا نوافذ، بلا أبواب، بلا مخرج واضح، كان الضوء يتدلى من سقفٍ لا يرى، كأنه نبضٌ قلبٍ هادئٍ يُنير الطاولة المستديرة في المنتصف. لم تكن الطاولة فاخرة، ولا الكراسي أنيقة... لكنها كانت مُهيبة. كأنها صُنعت لتشهد اعترافاً جماعياً طال انتظاره.

جلس هناك، في منتصف الغرفة، رجلٌ في الثلاثين من عمره. كتفاه منحنيان قليلاً، عيناه مرهقتان، يديه فوق ركبتيه كمن ينتظر شيئاً لا يفهمه. لم يعرف لماذا جُلب إلى هذا المكان، ولا كيف دخل. لكنه شعر بأن عليه أن يبقى.

ثم بدأوا في الوصول.

دخل الطفل أولاً. في السادسة ربما. عيناه واسعتان، تحملان خيبة قديمة لم يستطع أحدٌ تفسيرها. جلس بصمت، يحمل دمية قماشية مهترئة بين ذراعيه، وحين التقت عيناه بعيني الرجل، لم يبتسم... بل همس: "لماذا تركتني أبكي وحدي؟"

جاء بعده المراهق. وجهه مشدود، حوافه ممتلئة بالغضب، وشفته السفلى مقضومة. جلس متكئاً بوقاحة على الكرسي، وحقق في الرجل الثلاثيني: "أنا من تحمل الضربات عنكم جميعاً. أنتم كنتم مختبئين في الظل. أنا من وقف أمام كل شيء."

تبعه شابٌ في أول العشرينات. عيونه مليئة بالدهشة، بقلبٍ كان يحلم ولا يعلم كيف يُهزم. كان يحمل في يده دفترًا جليدياً. جلس وقال بهدوء: "كنت أكتب عن حياةٍ أردتها. أنتم جعلتموها سخرية."

ثم جاء العاشق. رجل بملامح ناعمة، بين يديه وردة ذابلة، ينظر إليها كأنها حبيبته التي خائته ثم رحلت. جلس، ولم ينطق بكلمة... فقط بكى.

دخل المنعزل بعدها. مشيته مترددة، عيناه زائغتان، لا يثق بأي أحد. جلس بعيداً عن الطاولة، قرب الحائط، ولم ينظر لأحد. كان يحمل كتاباً ممزقاً، وملفوقاً حول صدره وشالّ رمادي.

وأخيراً... دخل العجوز. ببطء، بثقل، كأنه يحمل الزمن كله على ظهره. لم ينظر إلى أحد. جلس، وأغمض عينيه، كأنه يعرف ماذا سيُقال، وماذا سيبقى دون قول.

ساد الصمت.

ثم بدأ النقاش.

قال الطفل: "كل واحدٍ منكم مرّ بي وترك لي ألماً جديداً. أنتم لا تعرفون معنى أن تبكي ولا أحد يسمعك."

قال المراهق: "أنتم خائفون. دائماً كنتم كذلك. أنا صرخت، حاربت، جرحت نفسي... فقط لأبقيكم أحياء."

قال الشاب: "أنتم تخليتُم عن أحلامي. أنا كتبت، ورسمت، وتخيلت... لكنكم قتلتم خيالي."

قال العاشق: "أحببت بصدق. لكنكم صرتم جليداً. لا أحد منكم تجرّ أن يحب كما فعلت."

قال المنعزل بصوت خافت: "أنا بقيت بعد أن رحل الجميع. أنا الذي جمعتُ الحطام."

أما العجوز، فلم يتكلم.

نظروا جميعهم إلى الثلاثيني، كأنهم ينتظرون تبريره. كأنهم محكمته. لكنه لم يتكلم. فقط أغلق عينيه، وشعر بدمعة تسقط من وجنته.

اقترب العجوز أخيرًا، وقال: "كلنا عشنا فيك... لكنك الوحيد الذي ما زال يملك الوقت."

ثم، واحدًا تلو الآخر، نهضوا:

الطفل مدّ له مفتاحًا صدنًا.

المراهق أعطاه ولاعة صغيرة.

الشاب وضع الدفتر بين يديه.

العاشق ناوله الوردة الذابلة.

المنعزل سلّمه الشال الرمادي.

العجوز... أعطاه ساعة مكسورة.

أخذهم جميعًا.

وقف.

نظر إلى الطاولة... لم تعد مستديرة. صارت دائرة مغلقة عليه. لكنه الآن يعرف الطريق.

خطا خطواته نحو الظل...

ولأول مرة منذ سنين، شعر أنه ليس وحيداً، بل حاملاً لكل نسجه... لا ليلومهم، بل ليكمل ما لم يستطيعوا إنجاءه.

الفصل الثاني عشر

رسالة اعتذار أخيرة

عزيزي أنا... سامحتك

كان المساء يهبط ببطءٍ على الغرفة الرمادية، كما لو أنه يمارس الحداد بصمتٍ.
الستائر نصف المسدلة تخلت عن أشعة الشمس الأخيرة، لتمنح المكان عزلة تليق
بندبةٍ طال كتمانها. لا أصوات، لا حركة، فقط ارتجاف بسيط في ضوء المصباح،
كأنه يتنفس مع قلبٍ خائف من الكتابة.

في وسط الغرفة، طاولة خشبية عتيقة، فوقها ورقة بيضاء، نقية حدّ الوجع.
الكرسي أمامها خاوٍ... كما لو أنه ينتظر اعترافاً لا يمكن لأحدٍ غيري أن يكتبه.

دخلتُ. لا بقدمي فقط، بل بكلي. بدروبي المعتمدة، بجسدي المثقل، بنفسي التي
حاولت أن تبقى واقفة كل تلك السنوات.

جلست.

صوت الخشب تحت وزني بدا كأنه تنهيدة جسدٍ أنهكته الحياة. مدت يدي نحو
القلم، ولم يكن قلماً فقط. كان مشروطاً، مفتاحاً، اعترافاً مؤجلاً.

وحين لامستُ الورقة، سمعتُ خطوات خفيفة خلفي. لم ألتفت. كنت أعلم أنهم
هناك.

كلّ نسخي السابقة.

الطفل الذي بكى وحده في زاوية الغرفة لأنه خاف أن يقول الحقيقة. الفتى الذي
خذل نفسه ليكسب حباً لم يكن له. الشاب الذي تقمص شخصية غيره ليشعر أنه
كافٍ. والرجل الذي حمل أعواماً ثقيلة دون أن يصرخ. كانوا واقفين جميعاً خلفي،
لا ليدينوا... بل ليشهدوا.

فكتبت:

"عزيزي أنا،

أكتب إليك بعد أن سقطت آخر ورقة خريف من شجرة كنتَ تظنها دائمة الخضرة.
أكتب إليك لأنني لم أعد أحتمل صمتي، ولا قدرتي على التظاهر بأنني بخير.

سامحتك.

سامحتك لأنك لم تكن تعرف. لأنك كنت تتخبط في الظلمة وحدك، تفتش عن يدٍ لم تأت، وصوتٍ يقول لك: أنت لست وحدك.

سامحتك على كل مرة آمنتَ بمن لا يستحق، وعلى كل رجاءٍ قدّمته لقلبٍ لم يفهمك.

سامحتك حين صمتَ لأنك كنت تخاف، وحين تكلمتَ لأنك كنت تتمنى.

سامحتك على تلك الليالي التي كرهتَ فيها نفسك... وقلتها أمام مرآةٍ لا ترحم.

أعلم أن فيك ندوبًا لا تُرى، وأنت تحاول أن تبدو سليمًا لأن الحياة لا تنتظر الجرحى.

أعلم كم مرّة ارتديت ابتسامتك كدرع، وقلت "أنا بخير"، بينما شيء ما فيك ينكسر ببطء.

كل ذلك أعرفه الآن.

ولذلك... سامحتك.

لا لأنك لم تُخطئ، بل لأنك كنت بشراً، تتعلّم عبر الألم، وتُعيد لملمة شتاتك كلما بعثرتك الحياة.

أريدك أن تقرأ هذه الرسالة بصوتٍ مرتجف، وأن تبكي إن استطعت، لا لأجلك فقط، بل لأجلي أنا... ذلك الذي لم يجد من يمسح دموعه.

اليوم، لن أطلب منك أن تكون قوياً. اليوم، أريدك أن تكون صادقاً. أن تضع كل أوزارك جانباً. أن تقول: أنا تعب.

وأن تُصدّق أنك تستحق الراحة.

وداعاً أيها الغريب الذي كنته. مرحباً أيها القريب الذي صرتّه.

بقلبٍ سامحك قبل أن تنتهي هذه السطور، أنا"

وضعتُ القلم، ببطء... كما يُغلق جفن مريض بعد جرعة صدق.
ثم طويت الورقة.

أحد أطيافي اقترب. كان الطفل، نظر إليّ بعينين فيهما بعض الدهشة، وبعض الغفران. لم يتكلم، لكنه ابتسم.

ثم تبعه الآخرون... مشوا حولي في صمتٍ مهيب، كأنهم في جنازة لألمٍ أخير.
خرجتُ من الغرفة. ولم أغلق الباب. تركته موارباً... لعلّ أحداً يعود ليقرأ الرسالة.
أو لعلّي أنا، يوماً ما، أعود.

عزيزي القارئ :

لقد قلتُ كلمتي، وتمزقتُ في كل فصل.

الآن، حان دورك لتكتب رسالتك.

لا أحد سيقروها سواك،

لكنك إن كتبتها بصدق... ستسمعك الحياة.

النفسي :

● الفهرس

1. قضية رقم 1: من قتل الثقة؟
2. العناية المُشددة للمشاعر
3. في عيادة الوعي – جلسة لترويض الداخل
4. المزاد العلني للمشاعر
5. غرفة المرايا النفسية
6. لقاء مؤجل
7. لحظة المواجهة
8. الساعة المتوقفة
9. المقبرة التي دفنتُ فيها نفسي
١٠. المعطف الذي لم يكن لي
١١. مزق الرسائل القديمة
١٢. رسالة اعتذار أخيرة